

مفهوم التاريخ في فكر الأب د. يوسف حبي

بنيامين حداد

من مجمل ما كتبه الاب الدكتور يوسف حبي في التاريخ ، في التاريخ الكنسي، او التاريخ المدني، وفي تاريخ الادب، وفي التاريخ عامة. نستدل انه كان ممن ينتهجون "النظرية النقدية للتاريخ".

كتابات الاب حبي في هذا المجال الانساني الخطير، تثير تساؤلات عديدة عن تعامل الانسان مع ماضيه، مع تراثه، مع تاريخه، مع التاريخ عامة، وبتاريخه ضمن ذلك وليس خارج اطار التاريخ الانساني العام. الاب حبي كان يؤمن بتواصل الحضارات، وكان يؤمن بتفاعل الثقافات وتلاقحها.

ومن هذا المنطلق اولى جانب المقارنة في دراسة التاريخ اهتماماً كبيراً. ومن التساؤلات التي تثيرها اعمال الاب حبي في حقل التاريخ نذكر:

- كيف قرأنا التاريخ ؟
- كيف نقرأ التاريخ اليوم، في عصرنا القائم ؟
- كيف ينبغي علينا ان نقرأ التاريخ في المستقبل من الايام؟

كتابات الاب حبي، توحى لنا انه كان قد ادرك ان اي شعب من الشعوب عبر الزمان والمكان - قراءته، وطرقه ابواب التاريخ واسلوب قراءته له، وطريقة تعامله مع معطياته، مع كل مفردة من مفرداته... هي التي تربي ابناءه، وتوجه سلوكياتهم. وهي التي تحدد نمط حياتهم، ميولهم، توجهاتهم، أحلامهم ومراميمهم، لا

بل ان اسلوب قراءة اي شعب لتلك المعطيات التاريخية، وتفاعله معها، هي التي ترسم وهي التي تقدر مصيره ان يبقى، ان يكون او ان لا يكون!
 الاب حبي، في بعض كتاباته نوه من بعيد، اننا في كثير من فترات الزمن، أُجبرنا بشكل مباشر، على قراءة التاريخ بشكل مشوه مغلوط، بعيداً عن القراءة النقدية للتاريخ، ومع ذلك، فهذا لا يعطينا مبرراً لعدم تصدينا للتاريخ وقراءته قراءة نقدية موضوعية علمية. هذا وان تلك المؤثرات والضغوط التي حرفتنا عن طريق قراءة التاريخ كما يجب، لم تكن السبب الوحيد في هذا المجال.
 اسباب اخرى كثيرة كانت وراء ذلك، منها:

ان التوجه العام لدى غالبية مفكرينا ومتقفينا وخاصة المتأخرين منهم كان في مجال الادب، تراث الادب ولغة الأدب...

اما من تصدوا لدراسة التاريخ، فيعدون على الاصابع، وان غالبية هؤلاء تقليديون محافظون، بل نقلة جامعون للمعلومات، وليسوا مؤرخين.
 وتجنب او تحاشي طرق ابواب التاريخ بمنهجية علمية واقعية نقدية، كان سببه رقابة الانظمة الحاكمة الشمولية، وضآلة مساحة الحرية امام الباحث والمؤرخ.
 و لنحاول الآن الاجابة على سؤالنا:

- كيف قرأنا التاريخ... بدءاً نقول: نحن لنا تاريخ طويل، عمره آلاف السنين، عميق بعراقته مشهود له باصالته. ولسنا وحدنا من يقول هذا بل سفر التاريخ البشري كله، يقر بذلك قبلنا، ويكفينا فخراً ان الآخرين قد سبقونا، فظفروا اكاليل الغار والمجد، فوق هامات رموز تاريخية من سلفنا الصالح، كان لها شرف الريادة في بناء صرح الحضارة الانسانية.

ومع ذلك نقول: ان صفحات سفر التاريخ ليست كلها مشرفة... وحيي كان قد استوعب ذلك فقد كتب مرة (في كنيسة المشرق ص ٦٢) يقول:

"حياة البشر لم تكن في يوم من الايام كاملة، لاغبار عليها من كل الوجوه"

واضيف فأقول: ان بعض معطيات ماضي الانسان عبر مراحل التاريخ،

مرشحة ان تغدو سيفاً ذا حدين او بالاحرى، ان هناك دائماً من يعمد الى جعل بعض معطيات التاريخ سيف ذو حدين، قد يكون هذا لاغراض معينة مبيتة. كما قد يكون بسبب عدم المراعاة لتأثيرات عاملي الزمان والمكان في مسيرة التاريخ. العاملان اللذان من شأنهما دائماً ان يعملوا على تغيير نظرة الاجيال المتعاقبة الى مفاهيم امور الحياة.

وللتبسيط في ذلك نقول:

لقد عشنا نحن الشرقيين ولا نزال نعيش ونتعامل مع معطيات التاريخ بعواطفنا.. بمشاعرنا واحاسيسنا ننطلق في فهمها من نظرة، من رؤية مثالية، ونجعل من بعض مفردات التاريخ رموزاً سرية مقدسة، ننشئ لها معابد، ونرفعها فوق مصاطب عالية، ونروح نتعبد لها، نمجدها، ونرفع لها آيات الشكر والمجد..! والاب حبي يعلل هذه الظاهرة او هذا السلوك الشرقي ازاء التقليد والتراث ومجمل مفردات التاريخ، ويقول ان سببه سيطرة الحواس والعواطف على العقل، وهو ما يرتاح اليه الشرقي وينجذب اليه بشكل عفوي مباشر بل ومستحب.

هذا الغلو، وهذا التهويل في فهم رموز التاريخ، يخلق - وخاصة في الاوساط الشعبية - حالات مأزومة، حالات توتر عاطفي، قابل للانفجار، وتأجيج صراعات مؤلمة، واثارة نعرات عنصرية وتوليد كراهية واحقاد، ولا (قبول الاخر)، فالأخر دائماً (عدو)، كما يغذي الايمان بـ (الانا) و(الانا) فقط الراضة للعقل، الممتعة والملاقبله للنقاش او التفاهم.

هذه التوترات، وهذه الحالات المأزومة، قد لا يُعرف مداها، وقد تنتع وتتنصاع وتيرتها، فنكتسح وتؤدي وتخرب، وتلغي كل ما هو انساني. وخاصة اذا ما توفرت البيئة المناسبة والفرصة المواتية.

والحالة المأساوية هذه نعيشها اليوم باعلى واشد درجاتها. ومن دون شك، فهذا كله وليد قراءة خاطئة سيئة مشوهة، لا علمية ولا نقدية للتاريخ.

ودعونا ننقل الى الطرف الآخر من العالم، الى الغرب الى اولئك الذين نعتبرهم بلا اصالة تاريخية، وانهم مقتبسون مستوردون لاساسيات حضارتهم من الشرق، اولئك المفتقرون في نظرنا الى الريادة والجدور.

اقول: اولئك الناهلون من مصادر الشرق، قد سبقونا اشواطاً، لم يعد بالإمكان قياسها زمنياً. وتركونا نلهث وراءهم للحاق بهم دون طائل.

اولئك قد انطلقوا في فهمهم للتاريخ من نظرة واقعية موضوعية، من "النظرية النقدية للتاريخ". فغدت معطيات التاريخ بالنسبة لهم جرعات نسخ حي، حقرهم ونشطهم ودفعهم للحركة والتطور والابداع، للخلق والبناء والتعبير. هم يتقبلون بانفتاح ما يقدمه لهم طبق التاريخ الشهى، فيتناولونه، يمضغونه ويهضمونه جيداً كما يهضم الطعام، ومن ثم يتمثلونه، يمتصون نسغه الحي البناء، وهم في قمة يقظتهم ونشاطهم، وأقدامهم مرتكزة فوق ارض الواقع، بعيداً عن نشوة الزهو بما يعتبر من امجاد السلف.

والاب حبي كان قد فطن الى ذلك حين كتب مستشهداً بفولتير القائل: "ان حوادث التاريخ تعوزها الحكمة، ومساره ينقصه ادراك المغزى او المعنى، وهذا ما اغفله المؤرخون القدامى، مؤرخو العصور الغابرة، واهتم به الفلاسفة".

وحبي يضيف قائلاً: التاريخ النقدي الحديث، يستمد عمقه من الحكمة، وان الفلسفة في نهاية المطاف حكمة خالدة لذا كانت فلسفة التاريخ من صلب الحكمة الفلسفية، ويستطرد حبي فيقول "اما انا فمع (فلسفة التاريخ لا مع التاريخ التقريري الروائي السردي الحكائي، وان الفرق كبير بين ناقد للتاريخ وناقل للتاريخ، فرق كبير بين العالم والناسخ، وبين الحكيم والمسجل وإن على دارس التاريخ ومؤرخه ان يعمل من خلال نظرة عميقة، علمية، متزنة، انسانية وعصرية، لكي تغدو صفحات سفر التاريخ اشارات ضوئية نافعة، وآيات ورايات ومثل واهداف سامية، ويقول: وما احوجنا اليوم الى علامات مضيئة في دربنا، والى مثل سامية، والى مشاعل وآفاق".

ونعود فنقول: نحن نقرأ التاريخ، اما غيرنا من الشعوب المتقدمة فهم يستقرون التاريخ، وشتان بين ان تقرأ التاريخ فحسب، وان تستقري التاريخ..

نحن نقرأ التاريخ، ربما اكثر من غيرنا، لكننا لا نتدبره جيداً، ولا نستقرئه، لا نستنتق سطوره ولا ما وراء سطوره، كما يفعل الآخرون، الذين يشرّحون مفردات التاريخ، كما تشرّح جثه مضي وقضى صاحبيها، يشرّحون الماضي، يُخضعون التاريخ للاختبار، يضعونه فوق مصاطب التشريح، وينزلون به سبراً وتقطيعاً، ويدخلون اجزاءه في دوارق اختبارية، يخضونها خضا عنيفا كما يخض اللين الرائب داخل قربة جود، ويستخلصون زبدته (زبدة التاريخ).

نحن ندعى اننا الورثة الوحيدون للتراث وللحضارة، وان امجاد

التاريخ والحضارة كلها حكر لنا، وان ما ليس من منابع تلك الحضارة فهو دخيل ومرفوض وهكذا ننغلق على ماضيها، على تاريخنا ونتقوقع!
قراءات حبي النهضة الدؤوبة الواسعة والمتنوعة، علمته ان يفتح على كل الاجواء، على تاريخ وحضارة الانسان في كل زمان ومكان، التاريخ بمفهومه المطلق، وباعتبار معطياته كلها حلقات متواصلة، من انجازات الفكر الانساني، حلقات متداخلة، متفاعلة، متلاحقة، مؤثرة ومتأثرة.

هذه النظرة النقدية للتاريخ، وهذه الرؤية الموضوعية العلمية المنفتحة لمفرداته ولمعطياته، كان الاب يوسف حبي قد تبناها واخذ بها في كل كتاباته التاريخية. فقد سار على منهجية الباحثين والمؤرخين في اعتبار كل مفردات التاريخ على مر العصور، خامات اولى اساسية، اصيلة، نعم، لكنها وفي كل الاحوال ينبغي ان تكون بدايات نقاط انطلاق.

هذه الخامات يجب ان تظل - مثل اي شيء في هذا الكون - خاضعة راضخة، وقابلة للتحوير والتطوير والتغيير والاستحالة والتهديب، في طبيعتها وهيئتها، في حجمها وابعادها في مقاساتها ومدياتها، في الوانها واشكالها، وفي فحواها ودلالاتها، في كل شيء فيها، بما يلائم العصر ومفاهيمه، وانسان العصر وتطلعاته المستقبلية.

الدارسون للتاريخ ومؤرخوه، يدركون جيداً، ان لكل زمان ولكل مكان، قواعد وضوابط معايير ومقاييس، اعتبارات ومتطلبات خاصة بكل عصر.
كان يوسف حبي يرفض رفضاً شديداً ان يغدو التاريخ، تاريخ رموز فحسب، كان يرفض ان نحيط الرموز التاريخية بهالات قدسية، وان نكسبها عصمة ومنعة، تجعلها تسمو فوق كل الضوابط والقواعد، منيعة على عوامل التطور والتغير، عصية على الاحكام والمقتضيات العصرية، رافضة حتى مجرد التفكير في التحوير والمناقشة بشأنها!!

كان الاب حبي يخشى مثل هذه القراءة للتاريخ التي من شأنها ان تسكرنا امجاده وتفتتنا رموزه، فننتشي، ويملاً اعطافنا الزهو والافتخار بها فننتفخ مثل فقاعات هوائية، اخف الرياح ترفعها وهناك في علياننا المفتعل نعيش تسامينا الموهوم، في ذروة حمى غيبية مخدرة، ونرجسية جوفاء، فتغدو موروثات التاريخ، بنصها وفصها، وبفحواها التقليدي معصومة، غير قابلة لمجرد مسها من قريب او من

بعيد، غير قابلة لمجرد الجلوس والدخول في نقاش بشأنها، لا بل والويل كل الويل لمن تعرّض لها او عارضها.

وهنا، وعلى هامش ما سقناه، دعونا نقول: اننا اليوم اثنان، قبيل فينا سلفي اصولي تراجعي متشدد، يقدس الماضي، يقدس التراث والتقليد، ويقرأ تاريخه ومورثه بعواطفه ومشاعره بعيداً عن العقل، غارقاً في الغيبات.

وقبيل ثان يجحد ويشجب الماضي والتقليد والتراث، وينبذ كل معطيات التاريخ ورموزه ويتنكر لها.

القبيل الاول يعيش الماضي، يتنفس التاريخ، الى الحد الذي يشكل له منزلاً يسقط من خلاله في هوة السلفية والاصولية التاريخية القاتلة. فيتقهقر ويجمد ويتحجّر.

اما القبيل الآخر، النابذ والجاحد للتاريخ، والناكر لكل رموزه ومعطياته، نلقاه يلقي اللوم كل اللوم تعسفاً وظلماً في سبب انتكاساتنا وتحلفنا عن مواكبة ركب الحضارة، (على التاريخ)، على الماضي ورموزه، دون تمييز بين ما هو متحرك وايجابي وبين ما هو جامد وسلبي.

هذا القبيل ينطلق من اعتبار ذلك معاصرة او مسايرة لروح العصر وهو ان ينفلت - بحسب رؤيته - من ربه ما يدعوه التوقع التاريخي. جاهلاً او متجاهلاً ان الشجرة لا تخضر وتورق وتزهر ثم تثمر، ان لم يكن لها جذور ضاربة في اعماق الارض، تلك الجذور التي تمدها بنسخ الحياة والبقاء. غافلاً او متغافلاً، ان الامم التي تقدمت علينا، لم ترتق بحضاراتها وانجازاتها حد الاعجاز احياناً، الا عن طريق التفاعل الايجابي مع معطيات التاريخ والحضارة، كل التاريخ وكل الحضارات، وليس تاريخهم فحسب، بل تاريخ الانسان، تاريخ البشرية اطلاقاً، اينما وجد وحيثما كان على سطح كوكبنا الارض المباركة، وطن الانسان، الانسان بمفهومه المطلق. وبذلك تحاشوا السقوط في هوة الخصوصية الضيقة ومنزلق الاصولية التاريخية الجامدة الرافضة للاخر.

التاريخ هو تاريخ الانسان بشكل مطلق، الانسان اينما كان وفي اي زمان كان. وعليه فما ينبغي علينا هو ان نتعامل مع ماضيها، مع تاريخنا وموروثنا بموضوعية علمية، متجاوزين خط الخوف من النقد، الخوف من ان نتعامل مع ماضيها، مع تراثنا، ومع كل انتماءاتنا الاثنية والعرقية، والدينية والمذهبية

والعقائدية، على ضوء النظرية النقدية للتاريخ.

كتب حبي مرة قال: انا ممن يؤمنون بالتعددية، وبالجماعية، لأنها حقائق تضفي على التاريخ مفهوماً، وطابعاً، ولوناً. وتستمد من التاريخ، تاريخ (الانسان) معناها وابعادها. وختم قوله بعبارة اعتبرها من اهم واروع ما قاله: " تعيس من يرى الالوان كلها لونا واحداً " .

يقول حبي: اذا كنا نؤمن بان القادة والزعماء والعباقرة، يصنعون التاريخ، فعلى ان نؤمن برسوخ بان هؤلاء ليسوا سوى وليدي ارحام اجيال تتمخض عنهم مجتمعاتهم. وتأسيساً على هذه الحقيقة تكون الشعوب والمجتمعات هي صانعة الحضارة والتاريخ.

لقد حاول حبي دائماً ربط التاريخ الكنسي بالتاريخ العام (او التاريخ المدني). فتاريخ كنيسة المشرق بكل اجنحتها في مفهوم الاب الدكتور حبي، خبرة انسانية تلتقي فيها خبرات اقوام واديان وحضارات، وان هذا التاريخ - يقصد كنيسة المشرق - شريحة واحدة صغيرة وبسيطة من شرائح مجتمعنا وبلادنا مهد الحضارات الانسانية العريقة.

لذلك فهو لدى تعرضه لدراسة تاريخ هذه الكنيسة يفتح دراسته بالغوص في اعماق الاصول الحضارية لبلادنا، ليظهر بالتفصيل الابعاد الانسانية لتراثنا البشري الاصيل، وامتدادات تلك الابعاد.

اليوم الشك في عرف الباحثين والمفكرين، امر مشروع، فهم يذهبون الى ان الشك يقودهم الى يقين، ويكشف الحقيقة، لذا فهو عنصر فعال في منهجيات دراستهم.

والدكتور حبي في هذا الشأن، يقول:

تساؤلات كثيرة تطرحها عقلية معاصرة نعيشها، تريد التشكيك في كل شيء، في التاريخ وفي الاديان والتقليد للوصول الى صحة وحقيقة الامور ببراهين دامغة، وادلة محسومة، وحجج مقنعة.

ولقد اضنى واتعب هذا الشك المشروع عشرات الباحثين، الا ان ذلك جاءنا بنتائج مرضية رائعة. فكان ان رسمت وسطرت المعايير والاساليب المستخدمة، فغدت بمثابة (قوانين) او (مقاييس)، نسير عليها كل من شاء ان ينهج نهجاً علمياً في ميدان دراسته التاريخ والعلوم المقارنة.

يضيف حبي فيقول وهنا قد يتهم البعض العلماء والباحثين الذين يدفعهم عامل الشك الى اخضاع كل شيء للنقد، بانهم لا يحترمون التراث ولا التقاليد ولا الاعراف..

وهنا يستدرك حبي معترضاً فيقول: بالعكس، فان المنهجية القائمة على الشك في الدراسات هي من سيمنح التراث والتقاليد والاعراف، حقها ومكانتها، ويقوم حداً فاصلاً بين الاسلوب التقليدي القديم الذي يأخذ بالقصص والروايات على علاتها. في حين ان الاسلوب النقدي العلمي هو الذي يرجع الروايات والتقليد ومجمل مقومات التراث الى اصولها.

والباحثون المعاصرون، يعلمون تماماً، ان بالاسلوب الادبي الحكائي الذي كتبت به مفردات التقليد والسير، والغرض الذي كتبت من اجله اصلاً، فهو يدعو بل يقود كتابها الى الاضافات والتفخيم والتهويل والمبالغات لان الغاية من كتاباتهم ليست تاريخية اصلاً، بل تربوية تعليمية وحياناً ايمانية، تبغي بالدرجة الاولى، التشويق والشد الحكائي، ولا تهتم بالمعلومات التاريخية والجغرافية والبلدانية وغيرها من امور لا يعبأ بها كاتبو القصة او الحكاية.

وقد يعمد واضعوها الى استخدام الاساليب الغيبية، وهذا يتأتى من عقلية سائدة بين البسطاء من ابناء مجتمعاتهم، فيكثر من التدخل الالهي، ومن الاعاجيب والمعجزات، بحيث تشحن السير والقصص وروايات التقليد باعمال عجيبة غريبة. وان على المؤرخ الناقد تنقية مفردات التاريخ والتراث منها، لكي تبرز الاحداث الاصلية الواقعية بوضوح .

ومن وسط الصراع وتضارب الآراء بين انصار التقليد، وبين اصحاب الشكوك والمعترضين يقف يوسف حبي موقفاً توفيقياً وسطاً. وهو ايضا وليد ايمانه بالنظرية النقدية للتاريخ، التي يمثلها بالغربال بالنسبة للحبوب، وبالنار بالنسبة للذهب.

ويقول الدكتور حبي، الامر المهم هو عدم اخذ هذه الكتابات على علاتها كما لا يحق اهمالها كلياً. ولذلك لن يسقط التقليد كلياً بسقوط تاريخية وثائقه، كونها اعمال قصصية اكثر منها تاريخية، فالتقليد القديم والشامل قائم، ويتعزز اكثر بفضل غربلة نصوص التقليد القصصية والمنحولة.

وهنا اود أو اختتم هذا العرض لمفهوم التاريخ في فكر الاب الدكتور يوسف حبي بكلمات قالها بحق التاريخ، قال:

لا يدرك الانسان الحياة بمعناها الاحق والاعمق الا بفضل التاريخ.
ولا يدرك المبدعون ما يخلد، على كل صعيد، الا في التاريخ، ولا تكشف
الاجيال عظماءها، واحداثها الخطيرة، وروائع منجزاتها، الا من خلال التاريخ.
التاريخ علم، وخبرة، وحياة، وحق.
التاريخ تراث، وحضارة، ومدرسة، وفلسفة، ونبوءة.

